

انفتاح النص بين سلطة اللغة وصرامة المنهج (مُشْكِلُ التَأْوِيل)

أستاذ التعليم العالي: عبد السميع موفق.

جامعة محمد البشير الإبراهيمي / برج بوعريش - الجزائر

البريد الإلكتروني: abdessamiaa.mouffok@univ-bba.dz

تاريخ النشر: 2023/12/30

تاريخ القبول: 2023/11/22

تاريخ الإرسال: 2023/11/04

الملخص:

تختص هذه الدراسة بالبحث في حدود تأويل الخطاب الأدبي من حيث التوفيق بين المعطيات اللغوية المكوّنة له بجميع حيثياتها، وآليات المنهج وإجراءاته الموجهة لاستنطاقه، وكذلك مستوى ونوع القارئ الذي يحاول تأويل المنطوق الأدبي. وبين هذه الأقطاب الثلاثة الرئيسية يترنح رهان التأويل ويحتبس روح المعنى في شرك السلسلة الدلالية. لذا سعى الخطاب النقدي المعاصر جاهداً إلى تحطيم الحدود الفاصلة بين المناهج النقدية المتنوعة والعلوم المجاورة للنقد الأدبي تحت عباءة انفتاح النص، فبات جديراً بالاهتمام كلّ علم من شأنه أن يمتّ بصلة للمعنى المضرب في الخطاب الأدبي، وذلك بمنح الناقد آلية أو إجراء أو تقنية تساعد على فكّ شفرات النص بكلّ موضوعية ودقة علمية، لا تحمّل النص أكثر ممّا يحتمل، ولا تغفل عن الظلال الوجدانية والأصداء الموحية القابعة خلف بنيته السطحية. فهل أصبح لزاماً على النقاد البحث في ما وراء النص بكلّ متاح؟ وكيف يتم تأطير وضبط هذا المتاح خدمة لعلم النقد وقراءة النصوص؟ ومتى يدرك النقاد قيمة مواقع وإحداثيات الأقطاب المتحكّمة في التأويل، فيضعوا أطراً تقيّم من مزالق التأويل غير المؤسس والنقد الهدّام؟ هذه التساؤلات وغيرها من الإشكاليات ستحاول عناصر البحث الإجابة عنها فيما تبقى من نص المداخلة.

الكلمات المفتاحية: شفرات النص. آليات المنهج. السلسلة الدلالية. البنية العميقة. رهان التأويل.

ABSTRACT:

This study searches in the limits of the literary discourse interpretation in terms of reconciling between the linguistic data that make it in all its aspects as well as the mechanisms of the method and its procedures addressed for its interrogation. Moreover, the level and type of the reader who tries to interpret the literary utterance. Between these three main poles, the

bet on interpretation staggers and traps the spirit of meaning in the trap of the semantic chain. Therefore, the contemporary critical discourse tried to break down the boundaries separating the various critical approaches and sciences adjacent to literary criticism under the cloak of openness of text. Thus, it became necessary to give importance to every science that can link to meaning the literary discourse by providing to the critic a mechanic, a procedure, or a technique helping him to decode the text objectively and with scientific accuracy where the text should not be hyperloaded and should not lose sight of the emotional shadows and suggestive echoes that lie behind its surface structure. has it become necessary for critics to search beyond the text in every possible way? And how is this available framed and controlled to serve the science of criticism and reading texts? And when will critics realize the value of the locations and coordinates of the poles that control interpretation, and put frame works that protect them from the scourge of unfounded interpretation and destructive criticism? These questions and other issues will be answered by in the remainder of the text of the intervention.

Key words : text codes - method mechanics - the semantic chain - deep structure - interpretation bet

1. مدخل:

ظهر مصطلح التأويل في الثقافة العربية والغربية - على حدّ سواء - لصيقا بالنص الديني فكان وارتباطه بتفسير النصوص الدينية وقراءتها أكثر من غيرها، ولما ارتقى الوعي الإنساني في الحضارة والمدنية، وانزاح نحو التخصص في جميع العلوم والميادين، بدأ مصطلح التأويل يتسرّب شيئا فشيئا إلى حقل الدراسات الأدبية، فتلقّفه النقاد باهتمام بالغ وعناية كبيرة، وقد زاد من الاهتمام به كمصطلح نقدي، حين وظّفه النقاد مقابلا لـ (الهرمينوطيقا) الوافد الأجنبي. وقبل الولوج إلى المراحل التاريخية التي ظهر تطوّر فيها هذا المصطلح عند العرب وعند الغرب، يمكن تعريفه لغة واصطلاحا.

أ. التأويل لغة: ورد في لسان العرب لابن منظور أن التأويل هو: "المرجع والمصير مأخوذ من آل، يؤول إلى كذا، أي صادر إليه"⁽¹⁾. وذكر في موضع آخر عن التأويل أنّ: "أول الكلام وتأوله أي دبّره وقدره، وأوله وتأوله أي فسّره"⁽²⁾. فهو يأخذ معنى التدبر والتقدير في الحكم على الكلام وتفسيره، ومن هنا يأخذ التأويل معنى التفسير.

وبالنظر إلى اشتقاق الكلمة يظهر أنّ الفعل "أول" هو فعل مزيد أصله "آل" ومصدره "الآل"، و"الآل هو الأصل تؤول إليه الأشياء"⁽³⁾.

لقد وظّف الكثير من النقاد القدامى لفظي التفسير والتأويل في المعنى ذاته، رغم ما بينهما من فروق وفواصل، فلقد "عُدَّ التفسير كشفا لمعاني القرآن، وبيان المراد على مستوى اللفظ والمعنى في غريب ألفاظه تارة، وفي معانيه تارة أخرى، وعُدَّ التأويل كشف ما انغلق من المعنى"⁽⁴⁾.

ومن هنا يظهر أن التأويل أكثر إيغالاً إلى عمق المعنى من التفسير، ومن خلال القول السابق يتبيّن بأنه يتجاوز حدود اللفظ والمعنى إلى التركيب والسياق والنسق والأسلوب وغيرها من المؤشرات المتعددة في لحمه الخطاب.

وذكر صاحب معجم مقاييس اللغة أنّ: "أَوَّلَ الحكم إلى أهله إذا أرجعه وردّه إليهم. وآلَ الجسم إذا نحفَ أي رجع إلى تلك الحالة"⁽⁵⁾. من خلال هذا التعريف يظهر أن المقصود بالتأويل هو معنى الرجوع إلى الأصل، ونقول آل الرجل إلى أهله إذا رجع إلى أهل بيته. فيكون متعلقاً دائماً بالرجوع والعودة إلى الأصل أو الحالة الأولى التي انبثق منها، أو العاقلة.

ب . التأويل اصطلاحاً: يقول ابن رشد متحدّثاً عن التأويل: "هو إخراج النص من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخلّ ذلك بعادة لسان العرب في التّجوّز من حيث تسمية الشيء بشبيهه، أو بسببه أو لاحقه أو مقارنه، أو غير ذلك من الأشياء التي عدت في تعريف أصناف الكلام المجازي. وإذا كان الفقه يفعل هذا في كثير من الأحكام الشرعية فكم بالحري أن يفعل ذلك صاحب علم البرهان. فإنّ الفقيه إنما عنده قياس ظنيّ، والعارف عنده قياس يقيني، ونحن نقطع قطعاً أن كل ما أدّى إليه البرهان، وخالفه ظاهر الشرع، أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي"⁽⁶⁾.

يعتبر ابن رشد التأويل انزياحاً باللفظ من الحقيقة إلى المجاز دون الإخلال بقواعد الكتابة ومعايير اللغة، فهو الولوج إلى باطن الدلالة انطلاقاً من ظاهر المعطى اللغوي، فيكون البحث عن المعنى في اللفظ والتركيب معاً، وما ينظم بهما المبدع من أجناس الخطابات الأدبية المتنوعة.

إنّ مهمة المؤوّل لا تقف عند الحدود البنية السطحية للنص الذي أثبتته الكتابة جنساً أدبياً إبداعياً، بل تتعدّاه إلى كشف المستور وراء أبيئة اللغة في الخطاب، وانتظامها في أساليب الخطاب الإبداعية، بسبر أغوارها والتغلغل في أعماقها لأجل قبض الدلالة الباطنية التي تنهض بها المؤشرات

النصية، ولا يتأتى ذلك إلا للمؤول الذي يعمل فكره وعلمه ويستثمر ثقافته في استنطاق النصوص ومحاورتها دون اختراق لحدود شبكة الدلالة التي تحكم معالم النص.

2. التطور التاريخي لمصطلح التأويل:

اقترن مصطلح "التأويل" في الوعي البشري عموما بالديانات المختلفة، وظلّ حبيسا على رجال الدين والمفسرين للنصوص المقدسة ردحا من الزمن، حيث تفرّغوا للإحاطة بجوانب هذا المصطلح من زواياه المختلفة، فجاءت البحوث حوله مستفيضة، وكانت الآراء فيه متعدّدة تعدّد الديانات ذاتها، وتنوع وثرأ مشارب رجال الدين أنفسهم، يمكن رصد بعض ما توصلت إليه فيما يلي من عناصر:

أ. التأويل في الديانة اليهودية:

من أقدم ما وصل إلى العصر الحديث والمعاصر من العهد القديم الديانة اليهودية، وهي من الديانات السماوية التي ارتبطت تعاليمها وتشريعاتها بالكتاب المقدس "التوراه". حيث عمد أحبار اليهود القدامى إلى محاولة فهم النص الديني وتفسيره وقراءته، واصطلحوا على هذا النوع من التفسير أو الدراسة اسم "المدرش" (Midrash).

يعرفه العالم اليهودي يعقوب نيوسنر (Neusner Jacob) بأنه: "تفسير توراتي قامت به سلطات يهودية قديمة"⁽⁷⁾. فهو يحمل معنى التفسير والشرح مرتبط بالسلطة، أي أن عملية فهم النص الديني كانت منوطة فقط بالسلطة هي من تفسّر وبفهمها يفهم المحكوم (الشعب) وكأنها وصية عليه حتى في دينه واعتقاده.

النص الديني عند اليهود عبارة عن زخم معرفي وسلسلة دلالية لا يمكن الوقوف على حدّ نهايتها، فهم "لم يسعوا كثيرا وراء المعنى في الكلمات، بل رأوا في الكلمات شكلا من محادثة لا تنتهي ولا تصل إلى نهاية أو استنتاج، إلا حين تختتم بالصمت في الله، الذي به يبدأ وينتهي كل شيء"⁽⁸⁾. يمتدّ هذا القول إلى الأقوال الحديثة التي تتعلق بعملية التأويل، والتي تؤمن بتعدد المعنى في النص الواحد، أو ما يسمّى باللامحدودية التأويل على رأي جاك دريدا. فالنص لا يحمل معنى مخصصا، بل يتحدّد بتعدّد القراء والمفسرين وتنوع منطلقاتهم وثقافتهم. "وبالارتكاز على هذه الخلفية، فإن عملية التفسير أو المدرش لا نهاية لها بالتأكيد... فلا توجد لحظة تجعلك تتوقف وتستنتج، أنا الآن أفهم هذا، فهذا ليس من مقاصد القراءة"⁽⁹⁾.

ب . التأويل في الديانة المسيحية:

يعود الجذر اللغوي الأول للتأويل في المسيحية إلى كلمة "هرمينوطيقا" التي أتت من "الفعل اليوناني (hermeneuein) ويعني يُفسّر، والاسم (hermeneia) ويعني تفسير"⁽¹⁰⁾. وبالنظر إلى المصطلح بتمعن يظهر بأن له علاقة بالإله هرمس (Hermes)، الذي كان رسولا للآلهة إلى البشر، باعتبار أن لغة الآلهة تختلف عن لغة البشر، لذا وجب على الآلهة أن تستعين بوسيلة تمكنها من نقل رسائلها إلى البشر، فاستعانت بـ (هرمس) الذي كان يتقن لغة الآلهة ولغة البشر على حدّ سواء؛ لكنه يحوز أشياء جعلته ينتسب إلى الآلهة لا للبشر.

كانت الديانة المسيحية في المرتبة الثانية بعد اليهودية، كدين سماوي له كتابه المقدس أيضا، حيث انبثق "وضعا جديدا تتطور فيه الهرمينوطيقا عبر إعادة تفسير الكتاب المقدس في ضوء مجيء المسيح. وفي هذا السياق الديني اللاهوتي يتحدد مفهوم الهرمينوطيقا الدينية بأنها العلم بقواعد التفسير، وهذا التفسير نفسه يفهم على أنه تأويل مخصوص لنص معين"⁽¹¹⁾.

يمكن القول أن الديانة المسيحية كانت أقرب من غيرها للتأويل، لأنها اشتملت على العديد من النصوص الدخيلة على النص الأصلي، وذلك ما ساعد على تعدّد التفسيرات والتأويلات، يقول دافيد جاسبر: "إنه ومنذ البداية كان عند المسيحيين اندفاعا قويا نحو تأسيس نصوص دينية من داخل المسيحية نفسها"⁽¹²⁾. وتروي بعض كتب الأثر بأن المسيح عليه السلام نفسه، قد قدّم شروحات للنص المسيحي، وتلك الشروحات تلقاها أتباعه، ممّا سهّل على المدّعين تخريجها على وجوه مختلفة ومتنوعة، ليفتحوا بذلك باب التأويل واسعا.

ج . التأويل في الدين الإسلامي:

إن الدراسات المختصة بالتأويل أو الهرمينوطيقا في الأمم السابقة عن أمة الإسلام، كشفت بأن البعد الأنطولوجي⁽¹³⁾ (Ontology) للهرمينوطيقا يتحقق في تفسيرها للنصوص الدينية. فهل عرف الدين الإسلامي أيضا فن التأويل في النصوص الدينية كما اصطلح عليه لدى الغرب؟.

يعتبر مصطلح الهرمينوطيقا مصطلحا غربي النشأة كتسمية، لكن على مستوى التطبيق والممارسة في النصوص الدينية موجود في الثقافة الإسلامية، ويقابله تحديدا مصطلح "التأويل" الذي ارتبط

بالنص القرآني، حيث ظهر على حقيقته وبوظيفته ومفهومه الأصليين، وقد توجد بعض الآراء التي قرنته بالتفسير وأدرجتهما في تصنيف واحد، رغم ما بينهما من تباين صارخ في الاستعمال والتوظيف.

لقد اكتسح التأويل مساحة كبيرة في مناطق التفكير بالثقافة الإسلامية؛ لكونه يمثل منهجا إجرائيا يقرأ النص الديني قراءة علمية تقتضي إخراج المعنى الباطن العميق إلى الظاهر المكشوف بإليات تنأى عن العبثية والاعتباط، تتسم بالعلمية والدقة والموضوعية؛ لأن النص القرآني تسمو فيه العبارة على التعبير الإنساني، وترتقي فيه المعاني إلى أقصى ما يدرك العقل البشري وما لا يدرك.

لذا احتاج العلماء المسلمون إلى علم التأويل ومنهجه؛ الذي يهتم بالبحث عن الدلالة العميقة في النص القرآني؛ لأن الذي يهم في القرآن ليس ظاهره فحسب؛ بل باطنه الذي يخفى عن البصيرة والأبصار، فلا يمكن الوصول إليه دون تأويل.

وإذا كان القرآن في ظاهره يحدثنا عن قصص حدثت في الزمن الماضي، فإن التأويل يوصلنا إلى عبر وقيم وفوائد، تشمل الماضي التليد والراهن والمستقبل جميعا، وشاملة لجميع الناس، وصالحة لكل زمان ومكان وذلك ما يسدي على الحنفية البيضاء صفة العالمية والديمومة والشمولية.

إن "ظاهر القرآن يدل على مفهوم محدد في إطار مناسبة أدت إلى نزول الآية؛ وأما باطن القرآن فهو ناظر إلى المعاني غير المحدودة ولا المقيدة بقيود، بل له معنى عام وشامل ... هذا المعنى العام هو الهدف الأساس من الكلام، أي إن الهدف الأولي من نزول الآية هو هذا المعنى العام"⁽¹⁴⁾.

فلو كان المقصود من القرآن ظاهره فقط، لاختصّ بأسباب النزول وفي حق من نزلت ولكان خاصا بالرسول صلى الله عليه وسلم وحده دون غيره، ولبقي حبيس عصره لا يتعداه لزمان غيره، لكن القرآن الكريم رسالة عالمية، والرسول صلى الله عليه وسلم بعث رحمة للعالمين كذلك، فلا بد إذا أن ينظر العلماء في باطن القرآن الكريم الذي يثبت عموميته وشموليته وعالميته وديمومته. يرى العلامة الطباطبائي: "أن المراد من المعنى الظاهر هو هذا المعنى الذي نحصل عليه من خلال ظاهر الألفاظ، وأما المعنى الباطني فهو معنى مخفي في الآية، وراء المعنى الظاهري أو بعيدا عنه"⁽¹⁵⁾.

ومما يدعم هذا التوجه في قراءة النص القرآني على سبيل المثال لا الحصر، هو تعدّد التفاسير وتنوعها، منذ بزوغ فجر القرآن إلى يوم الناس هذا، وكذا عدم قدرة المفسرين والقراء على الإحاطة بجميع معانيه.

3. التأويل في الفكر الغربي الحديث والمعاصر:

في بداية الحديث ظهر لفيف من النقاد الغربيين، سعوا إلى البحث في مجال الهرمينوطيقا تنظيراً وتطبيقاً، ومنهم من ركّز على جانبها الأدبي والنقدي، ومنهم من اتجه نحو الإيديولوجيا والدين، وهناك من انطلق من فلسفة المناهج السياقية والنسقية العربية لتحديد وتوسيع مفهوم الهرمينوطيقا، فجاءت مساهماتهم على النحو التالي:

أ. شلاير ماخر والهرمينوطيقا الحديثة:

رائد الهرمينوطيقا الحديثة الفيلسوف واللاهوتي شلاير ماخر (Shleier macher) وهو الذي جعلت منه الدراسات التأويلية المعاصرة معلماً ثابتاً لها، فيقال الهرمينوطيقا قبل ماخر وبعده. وهذا قد يرجع إلى النقلة النوعية التي أحدثها في مجال الهرمينوطيقا القديمة، والثبة الفكرية التي أحدثها في نظريات الهرمينوطيقا، التي كانت قبله متعلقة بفهم وتفسير النصوص الدينية فقط، وإزالة الغموض عنها ومحاولة استنباط المعاني المضمرّة فيها. ولما أتى ماخر أسس دعائم هذا النظرية الجديدة (الهرمينوطيقا) على أرضية صلبة وقارة استقى منها من أتى بعده الكثير من الإجراءات الأداتية في عوالم النقد عامة، وذلك ما جعل بعض الدارسين يرون بأنّه "أول بل لعلّه أعظم هرمينوطيقي حديث" (16).

حيث أخرج الهرمينوطيقا من دائرة الاستخدام اللاهوتي لتكون علماً أو فناً (فلسفياً) ذا قواعد وشروط علمية، ومنه باتت التأويلية هي "امتلاك كل قواعد وشروط الفهم، وكمقاربة نقدية تسعى لتحليل كل النصوص (التاريخية، والدينية، والقانونية، والتراثية والأدبية)، لتتسع نظرتها أكثر للعلوم والفنون، فيزداد ثراؤها.

ب. التأويل والنزعة التاريخية (فيلهالم دلتاي):

تعد فلسفة دلتاي (Wilhelm dilthey) امتداداً لما قدّمه ماخر في حقل الهرمينوطيقا عامة، حيث جعل التأويل شكلاً من أشكال الفهم، لكن كل ما قدمه من تجديد في الهرمينوطيقا جعله يمثل مرحلة

لوحده، حي رفض الدائرة الرومانسية التي أوقف ماخر تأويليته عليها، وحاول الخروج من قوقعة التفسيرات النفسية الضيقة إلى رحب العلوم الإنسانية والفكر والتاريخ.

ومن هذه النقطة قدم دلتاي مشروعه التأويلي طارحا تساؤلا جوهريا: "كيف نفهم نصا ما انتعى إلى الماضي؟ أي نطرح سؤالاً أوليا، كيف نتصور تسلسلا تاريخيا؟ قبل انسجام نص ما يأتي انسجام التاريخ، والمنظور إليه كوثيقة الإنسان الكبيرة كأهم تعبير للحياة"⁽¹⁷⁾.

وكان هدف "دلتاي" هو تشييد مناهج للوصول إلى تأويلات صائبة موضوعيا لتعابيرات الحياة الداخلية، ويرى بأن التفسير العلمي ينظر للإنسان باعتباره كيانا عضويا تحركه دوافع فيزيائية، بينما يفترض أن له قيما ودوافع داخلية. ويفهم العالم الإنساني من خلال طرح الأسئلة، وكل سؤال يتحدد من ناحية الشكل والمضمون، بمقدار الاهتمام الكامن وراءه، والسؤال في ذاته يمثل تفسيراً جزئياً للظاهرة موضع السؤال، وأكد على أن الخبرة العيانية هي ما ينبغي أن تكون نقطة البداية، وليس التأمل النظري.

ج . التأويلية والنزعة الوجودية (مارتن هيدغر):

كانت الهرمينوطيقا قبل هيدغر (Martin Heideger) تسعى لمحاولة الوقوف على الفهم الصحيح للنصوص، وذلك بالسعي وراء إيجاد منهجا علميا يساعد على الوصول إلى تحقيق شروط الفهم الكائنة والممكنة على حدّ سواء، وبالتالي إخراج النص من حالة سوء الفهم التي انتابته عبر تنالي الزمان. بمجيء هيدغر الذي جعل من التأويل موضوعا فلسفيا، وجعل الفلسفة موضوعا هرمينوطيقيا أيضا. فهو الذي يقيم "الهرمينوطيقا على أساس فلسفي، أو يقيم الفلسفة على أساس هرمينوطيقي. وكلا العبارتين صحيح، طالما أن الفلسفة هي فهم الوجود، وأن الفهم هو أساس الفلسفة وجوهر الوجود"⁽¹⁸⁾.

فإذا كانت الفلسفة هي فهم الوجود وحقيقته، فإن عملية الفهم بما هي عملية هرمينوطيقية تكون أساس الفلسفة التي تقوم عليها من أجل الوصول إلى حقيقة الوجود، وهذه التلازمة التي كانت تحكم الهرمينوطيقا التي جاء بها هيدغر، وهي هرمينوطيقا فلسفية تقوم على معضلة فهم الوجود وفق مسعى تأملي صبور يروم تعزيز التناغم الأصلي بين الحياة والذات الإنسانية حتى تفرج الكينونة عن أسرارها في معارج الاختبار التاريخي.

د . غادامير والهرمينوطيقا الفلسفية:

ينطلق هانس جورج غادامير (Hans-Georg Gadamer) من مقدمات أستاذه هيدغر في الهرمينوطيقا الفلسفية، حيث نظر إليها نظرة فلسفية أيضا، وبذلك خالف الاتجاهات السابقة التي أبعدت الهرمينوطيقا عن الفلسفة.

لقد اشترك غادامير مع أستاذه في نقطتين أساسيتين هما: "النظرة الفلسفية إلى الهرمينوطيقا، والنظرة غير الذاتية إلى الفهم."⁽¹⁹⁾ فالهدف الأساسي من الهرمينوطيقا ليس البحث عن منهج للفهم الصحيح بل هو معالجة الفهم بنظرة فلسفية. وبالتالي لا تكون هرمينوطيقا غادامير قواعدا وأدوات لفهم العلوم الإنسانية؛ بل هي "سعي فلسفي لتوصيف الفهم بمثابة عمل أنطولوجي في الإنسان"⁽²⁰⁾.

فالفهم إذا لا يكون عملا تختص به الهرمينوطيقا فحسب، وإنما هو أبعد من ذلك، إذ يعتبر عملا إنسانيا موجودا في الإنسان، يكتسب بعده الوجودي بوجود هذا الكائن الذي يعيش على الفهم كعملية للوصول إلى الحقيقة المكتنزة في الوجود، ومنه فإنّ الفهم لا يحتاج إلى منهج للوصول إلى الحقيقة، بل "إن الحقيقة تفر من قبضة الإنسان الباحث عن المنهج"⁽²¹⁾. وكأنّ المنهج هو من يطارد الحقيقة في كنه الإنسان الذي يبحث عنها في ذاته بإجراءات المناهج الخارجة عنها، وهنا يظهر اللبس الذي يعتري غائيات العلم الغربي الوافد إلينا.

4. التأويل اللانهائي:

يتأسس التأويل اللامتناهي على مبدأ استراتيجية قرائية تقوم على الاختلاف والمغايرة على حد تعبير جاك دريدا (Jack Drida) الذي يعتبر أبرز من مثل هذا الاتجاه، وهو ينفي وجود أية حدود أو قيود تقف عندها الدلالة وإنما هي تعددية لا محدودة؛ "وبالتالي فإن رهان التأويل مفتوح على مغامرة اللانهائية"⁽²²⁾.

فهو يرى أنه لا توجد حدود أو ضوابط أو قواعد يستند إليها التأويل في تتبعه للدلالة داخل النص، ويكون منطلقه الوحيد في ذلك رغباته التي تجعل من الدلالة لا تقف عند معنى واحد وإنما تشظيها إلى دلالات متعددة ومتفرقة على جسد النص.

حيث لا يمكن للمؤول التفكيكي أبدا أن يقف على معنى النص، وإنما هو في عملية إرجاء مستمرة، ينظر إلى النص على أنه نسيج من العلامات واللاتحديدات، لا توقف استمرارها الدلالي أية معايير ألسنية أو سيميائية، ولا يمكن فرض أية حدود أو قيود على لعبة التأويل.

والتأويل اللامتناهي عند دريدا محكوم - إن صح القول - ببعض الاعتبارات الافتراضية التي تمكن المؤول من مقارنة النص والولوج إلى عالمه، وهي كما يلي:

أ . النص تشتيت (Dissémination): يعتقد دريدا أن النص قابل للتشتت والانفجار والتشظي، وهو سلسلة من الإحالات غير متناهية، وهو يؤمن بـ "غياب أية حدود تقيد هذه الممارسة النصية"⁽²³⁾؛ لأن النص في شبكته الدلالية منفصل كل الفصل عن مقصدية مؤلفه، والسياق الذي ورد فيه، وهو يبتعد عن كل ما من شأنه أن يشكل معايير لسانية وسميائية تحكم عملية التأويل.

"فيكون من الضروري، إذن وفي فضاء من هذا القبيل، ألا يكون للكتابة حرفيا أي معنى خصوصا إذا كانت محمولة على هدي ذلك السؤال. إنها فقط تحاول مع نفسها، تمتد وتحاول أن تقف على نقطة انهيار القصدية"⁽²⁴⁾. وينفي دريدا إذا عن الكتابة حيازتها على معنى ثابت ومسبق تفرضه بعض المرجعيات الخارج-نصية، إنه يعتقد بأنه يجب على المؤول تتبع تلك العلاقات اللامتناهيّة من النص؛ لإيجاد أكبر عدد من الدلالات الممكنة وهو يرفض فكرة "التسليم مسبقا بوجود حقيقة أو قصدية أو أصل سابق على النص"⁽²⁵⁾.

إن جعل النص في حالة من التشتت والضياع الدلالي ينتج عنه لعبة لا نهائية من الإحالات، "ذلك أن الدّوال تحدد بدوال أخرى، وهذه الأخيرة تحدد بدوال أخرى، وهكذا لا تصل سيرورة الإحالات إلى نقطة نهاية"⁽²⁶⁾. وبهذا يصبح النص مُجرّأ غير قابل للبناء والتحديد، يسير نحو رحلة مجهولة أو مغامرة خطيرة في طريق لا نهائي، لا يعلم من سار فيه نقطة البداية ونقطة الوصول.

ب . لعبة الإحالات اللامتناهيّة: إن القول بتشتيت النص يؤدّي حتما إلى القول بالإحالات اللامتناهيّة، التي تحيل على لامحدودية دلالة النص، لذا وجب التساؤل عن كيفية حيازة النص لمثل هذه الخاصية. "إن النص كأني دليل (Signe)، لا ينتج نفسه، إلا من خلال اللعبة التكرارية للترابطات والإحالات. إنه نسيج من الأنساق والمرجعيات، ينتج نفسه بفعل آلية امتصاص نصوص أخرى

وتحويلها⁽²⁷⁾. فهو استحضار نصوص سابقة بشكل مغاير جديد، أو ما يعرف بالنص الهجين في مقابل النص الخالص، إن النص الخالص في نظره غير موجود.

إن مفهوم لا نهائية الدليل الذي يكرس لا نهائية المعنى عند دريدا يرجع إلى "مفهوم السيميوزيس اللامتناهي عند بورس"⁽²⁸⁾. والسيميوزيس يدل على "إمكانية أي دليل أن يتحول إلى دليل آخر، في سيرورة لا متناهية من الإحالات هي سيرورة السيميوزيس"⁽²⁹⁾. ومنه فإنه يمكن أن يكون الدليل الواحد مُحيلًا على مجموعة لا نهائية من الدلالات، وكل دليل منها يحيل إلى مجموعة أخرى أيضا في عملية انشطار نووية تشكل المعنى اللامتناهي في النص.

وبحسب جاك دريدا فإنه "لا يوجد مدلول واحد ينجم من لعبة الإحالة، حتى لو استرد نفسه، إن وجود الكتابة هو وجود اللعب. والآن يعود اللعب إلى نفسه، ماحيا الحد الذي كان يعتقد بإمكان تنظيم حركة الدلائل انطلاقا منه"⁽³⁰⁾. وبذلك تكون الكتابة إذًا ممارسة للعب الدلالي الحر - كما يسميه دريدا - فهي سيرورة من الإحالات المفتوحة، وكل إحالة جديدة تحيل بدورها إلى مجموعة من الإحالات الأخرى، في شكل لعب حريقوم على التخصيب المستمر للمدلول داخل اللغة، بما يقتضيه فهم المتلقي ونفسيته وثقافته وذاتيته، بعيدا عن كل مرجع لساني أو سيميائي يحكم هذه العملية.

ج . رهان التأويل التفكيكي: إن مؤول النص الأدبي يروم أشياء تمثل رهان تأويله، وهو في هذا المجال - أي التفكيك بما أنه تشظي للدلالة، وتشتت للمعنى، وسيرورة للدليل - يجد نفسه أمام بعض الإشكالات منها: مدى انضمام حركة التشتيت هذه إلى لواء بنية مغلّة ومدى إمكانية تشظيها وتشتتها إلى أكثر من ذلك، من خلال المدلولات الجديدة التي سيضيفها في تأويله.

يروم دريدا للتأويل اللامتناهي مكانا خارج نسق المركزية الغربية، التي أعلنت من شأن جدلية (حضور/غياب)، كما أعلنت من شأن ثنائية (الكلام/الكتابة) أيضا، وهذا ما يفسّر بأنها أعلنت من شأن المؤلف وأهملت النص والقارئ. إن التسليم بمركزية الكلام أو السلطة أو الحضور يؤدي إلى أهمية هذا المركز في وظيفتين: "أولا إرساء بؤرة تسمح للمعرفة أن تنتظم حول حقيقة أكيدة تقدم نفسها كمطلق، ثانيا الحد من المعاني المتاحة، وهو ما يقيد الطريقة التي من خلالها نفهم نصا ما أو حقلا معرفيا"⁽³¹⁾.

لذلك استبدل جاك دريدا فلسفة الحضور بفلسفة الغياب، وأعلى من مركز الكتابة على حساب الكلام، وركّز على القارئ وأهمل الكاتب، وأقصى كل العوامل الخارجية التي لها علاقة بالنص، فيصبح

رهان التأويل يقوم على التخصيب المستمر لمعنى النص الذي لا يمكن الوصول إليه، وكل تأويل يعتبر محاولة تأويل من سلسلة التأويلات اللانهائية. "فالإبدال الاستمولوجي للتفكيك، يتضمن تحطيم أي موقع سلطوي؛ بالنسبة لدريدا لا يوجد شيء خارج النص"⁽³²⁾. فالتفكيك عند دريدا لا يقتضي الرجوع إلى أصل النص، وإنما هو مغامرة بحث نحو المجهول في إطار اللامحدودية التأويل.

حيث تساهم "هذه المسلمات والفرضيات في إنتاج تصور جذري للتأويل، لا يروم إثبات أي مدلول نهائي للنص، أولاً بسبب عدم اكتمال اللغة (لعبة الاحالات). ثانياً إن التأويل نفسه عرضة لشروط المغايرة... وامتداداتها النهائية، أي أنه لا يكتمل أبداً"⁽³³⁾. فيصبح النص إذاً عرضة للتشظي والهدم، ويتحدد رهان التأويل بعملية تقديم مدلولات جديدة تحيل بدورها إلى مجموعة أخرى من المدلولات، فتقدم عملية لا متناهية من اللعب الحر في دلالة النص، التي طالما يسعى الناقد للانقضاء عليها والإيقاع بها في شرك شبكة الدلالة، ولكنها تبقى متوتبة منفلة عصية لا تحدّها نقطة نهاية، بحسب مبدأ اللعب اللغوي في الإبداع والكتابة.

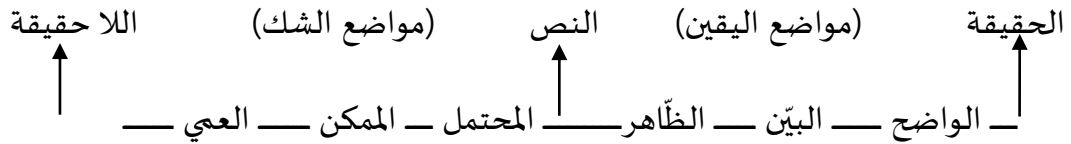
5. التأويل النهائي:

في مقابل التأويل اللامتناهي، يتبنى إمبرتو إيكو (Umberto Eco) التأويل المتناهي "موقفا نظريا وفلسفيا، ينظر إلى التأويل على أنه نشاط سيميائي، تحكمه قواعد ومعايير"⁽³⁴⁾. هذه المعايير والقواعد تحدّ من لا محدودية التأويل الذي يسعى للكشف عن الدلالات التي لا تحكمها أي علاقات مرجعية مع النص، حيث تكون إجراءات التأويلات خاضعة للقواعد اللسانية والسيمائية التي يقرأ بها النص، أي أن يجب يتخذ النص كمرجع تؤول إليه التأويلات فيكون هو بدوره "وسيطاً لتأويلاته الخاصة"، ولا يتأتى هذا إلا "بوجود لغة نقدية تعمل بوصفها ميتا-لغة، وتضبط المقارنة بين النص وكل تاريخه، والتأويل الجديد"⁽³⁵⁾.

فاللغة كوسيط لساني هي التي تبين مدى إمكانية خضوع التأويلات لقوانين النص، بحيث يربط النص بروح العصر الذي وجد فيه، وما يضطرم ويختم فيه من قضايا ومؤثرات تسيطر على المبدع لحظة الكتابة، وتحضر في النص لتضيف تأويلاً جديداً يكشف عن دلالات جديدة، تستجلبها معايير لسانية وسيمائية، توجه المؤشرات النصية صوب المعنى المرجو من الخطاب الأدبي، بظواهره المتعددة ومظاهره المتنوعة التي تتوزع على نسيج النص المتضافر علائقياً بمعطيات لغوية.

يظهر أن طبيعة التأويل "في استراتيجية إيكو الذي يلج على ضرورة تحديد المعايير والقواعد لرسم الحدود والخرائط بين أثاث العالم"⁽³⁶⁾. تتسم بالمعيارية التي تحكم الأشياء عامة من الوقوع في العشوائية واللا انتظام، الذي يؤدي إلى الفوضى واللا مصداقية واللا تحديد، وهذا كله يساهم في إبعاد الأشياء عن التوضع الصحيح في هذا الوجود، وتحديد مواقع الإحداثيات التي ترسم الحدود بين موجودات الكون.

وبهذا تكون الحقيقة في النص درجات متفاوتة، أي من الحقيقة إلى اللا حقيقة مروراً بالعديد من المحطات:



الواضح: "هو ما لا يقبل التأويل من الكلام بإطلاق مثل الأوامر والنواهي الصريحة مهما كان مصدرها، ومثل بعض الفصول القانونية"⁽³⁷⁾.

البين: "هو من الكلام ما لا يحتمل معنى آخر، ولكنه يقبل التأويل عن الضرورة؛ مما يجعله حتمالاً أوجه"⁽³⁸⁾.

الظاهر: "هو ما يحتمل عدة تأويلات؛ ولكن يختار أظهرها وأكثرها ملاءمة لسياق النص والسياق العام"⁽³⁹⁾.

المحتمل: "هو الكلام الذي ينبغي تأويله ليستقيم معناه ويدرك فحواه بحسب قوانين لسان العرب، وقوانين العادات والأعراف لإدخاله ضمن معارف المتلقي ومجموعته"⁽⁴⁰⁾.

الممكن: "وهو ما كان موجزاً من الكلام متيحاً لعدة تأويلات؛ ولكن المؤول يتخذ ما وجد من مؤشرات لبناء موضوع أو تشييد قصة"⁽⁴¹⁾.

العمي: "ما كان غير محدد المعنى ولا محدد الدلالة، ولا مقبولا من الناحية التداولية المعتادة، ولكن يحتال المؤول عليه، حتى يصير له معنى ودلالة ومضمونا"⁽⁴²⁾.

إن التأويل بمفهومه المعاصر حاضر في جميع المقاربات النقدية التي تدرس النصوص الأدبية دراسة هادفة وواعية، إما جبراً أو اختياراً؛ لكون إجراء فعال في محاوره النصوص واستنطاقها، فلا يغفل عنه أي باحث حاذق، أو قارئ.

6. الخاتمة:

إن أهمية التأويل تظهر في قدرته العجيبة عن كشف مخابئ السرية للنص، حيث يصل أحياناً إلى الأصداء الموحية في النص، ويستجلي الظلال الوجدانية المخزّنة وراء أبنية اللغة. إنّه رحلة من مبنى ظاهر إلى معنى غائر، من وصف العبارة إلى وحي الإشارة، ليضفي على النص صفة التراثية والخلود، متخطياً ربقة الزمان والمكان، معلماً من شأن القارئ الذي يعتبر هو الفاعلية الجوهرية في وجود التعدد الدلالي وتثبيته.

ومن هنا كان النص وسطاً للتفاعل بين التجريبتين (الكتابة/القراءة) تعاضداً أو انصهاراً أو تجاوزاً، وهذه الثنائية يتحقق التأويل المؤسس، حيث يكون المعنى مرتكزاً على دعائم نصية حقيقية حضرت في التجربة الإبداعية لحظة الإبداع.

إن نظرية التأويل نظرية غربية المنشأ والتنظير في مجال النقد الأدبي، وما كان مقابلاً لها عند العرب تعلق في بداية الأمر بالنص الديني، واختلط بمفهوم التفسير، دون أن يجعل منه النقد القدامى نظرية ناضجة تصلح لأن تكون منهج نقدي يدرس النص الأدبي العربي أما في النظرية الغربية فقد كان في أوله علماً يدرس النصوص المقدسة فقط، لينفتح تدريجياً فيصبح علماً عاماً يدرس ويهتم بجميع المجالات العلمية المختلفة.

يمكن للمؤول أن يخضع تأويله إما لسلطة النص، وإما لتراكماته المعرفية والفكرية والمذهبية، كما يمكن أن يكون جامعاً لها، فإن كان تأويله خاضع لسلطة النص، فإنه ينطلق منه محاوراً البنية اللغوية النحوية، شرحاً وتفسيراً، ورصد ودراسة الظواهر الأسلوبية كالمفارقات والانزياحات، وإن كان تأويله منصباً على رغائب نفسية وتصورات فكرية واهتداءات خاطرية، فإنه يجعل من النص خاضعاً لما يريد، وذلك بتمطيط الصلب منه وتليينه بلي عنق النص وتحميله أكثر مما يحتمل، مرضاة لدوافع ذاتية أكثر من كونها فاعلية نصية. أما التأويل الذي يتخذ الموضوعية سبيلاً من أجل الوصول للمعنى، فإنه يسمع للنسيج اللغوي ليعبر، وينظر في الأسلوب الذي يبرّر، ويرضى بما أقرّه المتلقي الذي كان يقرأ ويقرّر.

7. هوامش ومراجع:

- (1) جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د ط، د ت، مصدر 1، ج 11.
- (2) محمد عزام: التلقي والتأويل (بيان سلطة القارئ في الأدب)، دار الينابيع، للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط 1، سنة 2008 م.
- (3) سماحي ليندة: التأويل الشعري في النقد التطبيقي الجزائري، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، سنة (2016/2015).
- (4) أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين: معجم المقاييس، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 2، سنة 2012.
- (5) نصر حامد أبو زيد: الخطاب والتأويل، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، سنة 2000 م.
- (6) عادل مصطفى: فهم الفهم، مدخل إلى الهرمينوطيقا، نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامير، هنداوي سي أي سي، د ط، سنة 2017.
- (7) الحبيب بوعبد الله: مفهوم الهرمينوطيقا، (الأصول الغربية والثقافة العربية)، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، عدد 65، خريف 2005.
- (8) صفدر إلهي راد: الهرمينوطيقا (منشأ المصطلح واستعمالاته في الحضارات الإنسانية المختلفة)، تر: حسنين جمال: سلسلة مصطلحات معاصرة، بيروت، لبنان، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ط 1، سنة 2019.
- (9) دايفيد جاسبر: مقدمة في الهرمينوطيقا، تر: وجيه قانصو، الدار العربية للعلوم، ناشرون، منشورات الاختلاف، ط 1، سنة (1428 هـ/2007 م)، الجزائر، لبنان.
- (10) محمد بوعزة: استراتيجية التأويل من النصية إلى التفكيكية، منشورات الاختلاف، دار الأمان، الرباط، ط 1، 2011 م.
- (11) جاك دريدا: مواقع، تراكظم جهاد، الدار البيضاء، دار توبقال، ط 1، سنة 1988 م.
- (12) محمد مفتاح: المفاهيم معالم، نحو تأويل واقعي، بيروت/الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط 1، سنة 1999 م.

(1) جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د ط، د ت، مصدر 1، ج 11، ص 32.

(2) المصدر نفسه: ص 32.

- (3) محمد عزام: التلقي والتأويل (بيان سلطة القارئ في الأدب)، دار الينابيع، للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، سنة 2008م، ص202.
- (4) سماحي ليندة: التأويل الشعري في النقد التطبيقي الجزائري، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، سنة (2015/2016)، ص9.
- (5) أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين: معجم المقاييس، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط2، سنة 2012، ص160.
- (6) نصر حامد أبو زيد: الخطاب والتأويل، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، سنة 2000، ص64.
- (7) دايفيد جاسبر: مقدمة في الهرمينوطيقا، تر: وجيه قانصو، الدار العربية للعلوم، ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، سنة (1428هـ/2007م)، الجزائر، لبنان، ص45.
- (8) المرجع نفسه: ص46.
- (9) المرجع نفسه: ص48.
- (10) عادل مصطفى: فهم الفهم، مدخل إلى الهرمينوطيقا، نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامير، هنداي سي أي سي، 2017، ص15.
- (11) الحبيب بوعبد الله: مفهوم الهرمينوطيقا، (الأصول الغربية والثقافة العربية)، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، عدد65، خريف2005، ص167.
- (12) دايفيد جاسبر: مقدمة في الهرمينوطيقا، ص57.
- (13) علم الوجود أو علم تجريد الوجود، هو علم يهتم بالأشياء غير المادية، هو أحد الأفرع الأكثر أصالة وأهمية في الميتافيزيقا. يكشف عن طبيعة الوجود غير المادي في القضايا الميتافيزيقية المترتبة على التصورات أو المفاهيم والقوانين العلمية، مثل: المادة والطاقة والزمان والمكان والكم والكيف والعلة والقانون والوجود الذهني وغيرها.
- (14) صفدر إلهي راد: الهرمينوطيقا (منشأ المصطلح واستعمالاته في الحضارات الإنسانية المختلفة)، تر: حسنين جمال، سلسلة مصطلحات معاصرة، بيروت، لبنان، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ط1، سنة 2019، ص23.
- (15) المرجع نفسه: ص252.
- (16) دايفيد جاسبر: مقدمة في الهرمينوطيقا، ص119.
- (17) المرجع نفسه: ص(141/142).
- (18) نصر حامد أبو زيد: الخطاب والتأويل، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، سنة 2000م، ص30.
- (19) المرجع نفسه: ص125.
- (20) المرجع نفسه: ص125.
- (21) المرجع نفسه: ص125.
- (22) المرجع نفسه: ص58.
- (23) محمد بوعزة: استراتيجية التأويل من النصبة إلى التفكيكية، منشورات الاختلاف، دار الأمان، الرباط، ط1، 2011م، ص62.
- (24) جاك دريدا: مواقع، تر: كاظم جهاد، الدار البيضاء، دار توبقال، ط1، سنة 1988م، ص19.
- (25) محمد بوعزة: استراتيجية التأويل من النصبة إلى التفكيكية، ص62.
- (26) المرجع نفسه: ص62.
- (27) المرجع نفسه: ص63.
- (28) المرجع نفسه: ص ن.
- (29) المرجع نفسه: ص ن.
- (30) المرجع نفسه: ص64.
- (31) المرجع نفسه: ص65.
- (32) المرجع نفسه: ص(65/66).
- (33) المرجع نفسه: ص67.

-
- (34) المرجع نفسه: ص 71.
- (35) المرجع نفسه: ص ن.
- (36) المرجع نفسه: ص 72.
- (37) محمد مفتاح: المفاهيم معالم، نحو تأويل واقعي، بيروت/الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط 1، سنة 1999م، ص 38.
- (38) المرجع نفسه: ص 38.
- (39) المرجع نفسه: ص 38.
- (40) المرجع نفسه: ص 38.
- (41) المرجع نفسه: ص 38.
- (42) المرجع نفسه: ص 38.